الجزء الثاني

«في المنهج»

هذا الكتاب

إن الحمد لله نحمده نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ .

[الأحزاب:٧٠، ٧١]

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ، ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

تجرمت ست سنوات على صدور الكتاب الأول من هذه الدراسة حاملا بين عطفيه السيرة والإنتاج لرائد الفكر الإسلامي الحديث الشهيد سيد قطب ~ وذلك عبر بابين :

الباب الأول : عن السيرة وتضمن فصلين :

الفصل الأول : «من الطفولة إلى الشباب» .

والفصل الثاني : «بعد الأربعين» .

والباب الثاني : عن الإنتاج وتضمن فصلين أيضا :

الفصل الأول : «في المجال الأدبي» .

والفصل الثاني : «في المجال الإسلامي» .

ومن خلال ذلك تمثل القارئ سيرة وإنتاج رجل يعد أحد أمراء البيان العربي الحديث ، ويعد موسوعة فكرية بسبب تعدد مواهبه الفكرية والأدبية ، هذا بجوار ريادته في الفكر الإسلامي الحديث وتتويج أعماله بالاستشهاد لأجل إعلاء كلمة الله تعالى بعد أن خذلها من العلماء الأدعياء والمفكرين المتكففين الذين لا يخلو منهم زمان ولا يخلو منهم مكان .

وأحمد الله تعالى على ما لقيه الكتاب الأول هذا من قبول وحظوة ، ولا أدل على ذلك من السؤال الملحاح عنه بين الحين والآخر من قبل الأساتذة والباحثين والطلبة الجامعيين وغيرهم ، ومن قبل سواهم من القراء على مختلف طبقاتهم ، ولا أدل على ذلك أيضا من الكلمات الطيبات التي قالها له غير واحد من القراء من شتى الأصناف ، والحمد لله أولا وأخيرا على توفيقه ولولاه سبحانه ما حظيت بهذا التوفيق .

وبعد الكتاب الأول يأتي ، بداه ، دور الكتاب الثاني من هذه الدراسة حول «منهج سيد قطب في التفسير» وهي عندي تتألف ـ خلافا للخطأ الوارد في مقدمة الكتاب الأول نتيجة تداخل الأسطر (ص١٢) ـ من أربعة أبواب كل باب يحتوي فصلين أو فصولا ، **فالباب الأول** يتضمن مدخلا عن الحركة التفسيرية المعاصرة ثم موضوع صحبة الشهيد للقرآن الكريم .

والباب الثاني يتضمن الحديث عن منهج الشهيد في التفسير وعن رافد الظلال وعن طريقته الفنية .

والبابان الثالث والرابع يستشرفان منهجين في التفسير ـ وهما محوران جذريان في الدراسة ـ منهج فكري ومنهج فني ، فالثالث يتناول الفكري ، ويتحدد في رصد عمل سيد قطب ـ في تفسير آيات الأحكام سواء أكان في المجال الفقهي أم في قضايا الفكر الإسلامي ، ورصد عمله كذلك في تفسير آيات النبوة وآيات العالم

الآخر والآيات العلمية .

والرابع يتناول الإنتاج الفني ويتحدد في رصد آفاق منهج سيد قطب في الإعجاز البياني ، وفي القصة القرآنية ، ثم أختم كل ذلك بخاتمة عن الدراسة تضطلع ببيان القيمة الفكرية لتفسير « في ظلال القرآن» .

ولست أود الاسترسال في بسط الحديث عن هذه الدراسة ، فما قدمته من أضواء عنها يغني ، والمزيد يقف عليه من سيقرؤها من البداية إلى النهاية ، وحسبنا الإيماء فقط إلى أن هذا التفسير تفسير نفيس لا يضارعه تفسير معاصر نظرًا لتميزه بخصائص لا يتميز بها غيره ، في مقدمة هذه الخصائص أنه كتب بريشة فنان ماهر غمسها صاحبها في نبع من نور رباني ، فانطلقت ترسل بوحها الجميل حول ما تشع به الكلمة القرآنية المعجزة من أنوار ، وما تورق به من ظلال حانية خضر لا تذبل أبدا .

وفي مقدمة هذه الخصائص كذلك طرائقه الفنية في المعالجة ، وتجنبه الخلافات الفقهية واللغوية وابتعاده عن الإسرائيليات وتمثله النص تمثلا تهيمن عليه شفافية الإيمان ، وفهم ثاقب نفاذ مدرك لأبعاد النص القرآني ، ومقاصده ، وأسراره في النفس ، والمجتمع ، والاقتصاد ، والسياسة ، والحكم ، والكون ، وفي العمل الإسلامي ، ووجوب قيام الجماعة الإسلامية بالتنظيم لتقديم البديل الإسلامي للبشر بعد ما سئم البشر نظام الجاهلية المتسلط .

هذا بالإضافة إلى الأسلوب الأدبي الفذ الذي كتب به سيد قطب ~ التفسير ، والذي تفرد به بين كتاب عصره وبين المفسرين أنفسهم في القديم والحديث ، وهو أسلوب يتميز بعذوبة البيان ، وإشراقة اللفظ ، وانسياب العبارة رفرافة تنشر الدفء بين السطور فيتلقى القارئ ، وهو في غمرة القراءة طراءة الإيناس يحبب إليه ما يقرؤه ، وهذا قل ما تجده عند كاتب سواه ، وذاك ما يجعل سيد قطب صاحب مدرسة

متميزة في الأسلوب الأدبي .

فلا بدع ، إذًا ، أن يلقى هذا التفسير رواجًا منقطع النظير في العالم الإسلامي كله في حياة المؤلف وبعد استشهاده ، وأن تتسابق دور النشر إلى طبعه بطريقة مشروعة وغير مشروعة للأسف .

ولست أظن أن هناك مكتبة تحتوي الجناح الأدبي أو الإسلامي ولا يحتل فيها «في ظلال القرآن» مكانه الملحوظ؛ بل إن مكتبات لبعض الملحدين تضم هذا التفسير ضمن محتوياتها لكونه يمثل عندهم أنموذجًا جيدًا للكتابة الأدبية .

ثم بعد هذا أفسح المجال للدراسة لأن تتولى هي بنفسها إسهاب ما أجملت المقدمة وهي عليه أقدر ، فذاك شأنها الذي تملكه ولا يملكه غيرها؛ إذ المقدمة ليست إلا ومضة تنساب مشعة تضيء الطريق لمواقع الأقدام لارتياد ما وراءه من آفاق فساح .

هذه ، في الأخير ، عصارة جهد مبذول صرفت فيه وقتا ليس بالقصير غمره نصب ، ولكنه نصب إحلوليته؛ لأنه نصب فكري ، والنصب الفكري عندي نزهة تشرئب إليه نفسي خاصة إذا كانت النصب يخدم العقيدة ، كهذا الذي رصدته لدراسة تفسير فريد لكتاب معجز خالد لا أعلم دراسة كمثلها صدرت إلا رسالة ماجيستير لم تطبع في هذا الشأن ، تقدم بها الطالب إسماعيل الحاج أمين كما تشير إلى ذلك بعض المراجع [١] ، وإلا ما ينوي إصداره أخونا الأستاذ صلاح عبد الفتاح الخالدي من دراسات تتعلق بهذا الموضوع [٢] .

وأحب أن أفضي للقارئ الكريم أن تحريري لهذه الدراسة ، في الحق ، تم منذ أكثر من عشر سنوات وذلك حين كانت الساحة شاغرة من أضراب هذه الدراسات ،

---

(١) انظر : الخباص «عبد الله» ، سيد قطب الأديب الناقد ، ص ٤٠٣ .

(٢) انظر : كتابه نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، ص ٧ .

ولا أدل على ذلك من أن مجلة دعوة الحق التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية قد نشرت الحلقة الأولى منه عام ١٤٠٢ ـ (١٩٨٢) [1] واعتذرت من نشر بقية الحلقات معللة ذلك بأن الموضوع لا يناسب اتجاه المجلة ولله في خلقه شؤون .

مهما يكن من أمر ؛ فإن البحوث قد تتفق موضوعًا ، ولكنها تختلف جزمًا منهجًا ومعالجة نتيجة لاختلاف مستويات الدارسين العلمية ، وتباين أمزجتهم وتضارب أذواقهم .

وأملي من الله تعالى أن يجد الكتاب الثاني هذا القبول الحسن والترحاب الجميل ، كما وجده صنوه الكتاب الأول ، وما توفيقي إلا بالله سبحانه عليه توكلت وإليه أنيب .

*****

(١) العدد ٤ ، السنة ٢٣ ، ص ٤٥ .

الباب الأول

مدخل إلى تفسير سيد قطب

الفصل الأول : الحركة التفسيرية المعاصرة .

الفصل الثاني : صحبة سيد قطب القرآن الكريم .

الفصل الأول
الحركة التفسيرية المعاصرة

لمحة عن نشأة علم التفسير :

القرآن الكريم كتاب الله تعالى المعجز بلفظه ومعناه ، حوى بين دفتيه منهجًا ربانيًّا يؤلف مع السنة المطهرة الكريمة حقيقة كونية تتناغم في آفاقها الوسيعة عوامل الإبداع المادي ، والإشراق الروحي على نسق فذ غير مسبوق . ولن يكون له نظير إلى يوم القيامة؛ لذلك أقبل الناس على تملي تعاليمه منذ إشعاعاته الأولى ، وراحوا يستفتون الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام عما غمض عليهم من أحكام ، ففسر لهم ما روى غلتهم ، وبين بسنته الفعلية والقولية والتقريرية ما أزاح لهم السجف عما هم في حاجة إلى معرفته وصدق الله تعالى حين يقول : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] .

ونتيجة لذلك كله نبغ صحابة كرام في علم التفسير ، كأبي بن كعب (م عام ٢١هـ ـ ٦٤٢م) ، وابن مسعود (م عام ٣٢هـ ـ ٦٥٣) ، وزيد بن ثابت (م عام ٤٥هـ ـ ٦٦٥م) ، وابن عباس (م عام ٦٨هـ ٦٨٧م) .

ونشأت مدارس للتفسير بمكة والمدينة والعراق : **الأولى** : على يد عبد الله بن عباس ، **والثانية** : على يد أبي بن كعب ، **والثالثة** : على يد عبد الله بن مسعود وآخرين .

ومع ذلك لم يكن الخلاف بين السلف في التفسير خلاف تضاد ـ كما يقول الإمام ابن تيمية (م عام ٧٢٨هـ ـ ١٣٢٨م) ، في كتابه « مقدمة في علوم التفسير » [(١)] ـ وإنما كان خلاف تنوع نظرًا لفهمهم الحق مضامين القرآن الكريم ، ومشاهداتهم ملابساته في النزول ، ومعايشاتهم لظروفه ومناسباته وهو يشع من السماوات العلا

---

(١) ص ١١ .

منزلا على خير خلق الله ﷺ .

ثم جاءت مرحلة التدوين التي بدأت بنهاية القرن الأول الهجري وبداية الثاني برزت خلالها سمات علم التفسير؛ إذ راح يخطو هذا العلم خطوة بعد خطوة تمشيا مع منطق الزمن في تطور الأشياء ، فانفصل أولا عن أبواب الحديث في التصنيف ، وأمسى قائم الذات يعتمد في جوهره على المأثور ، ثم أخذ ثانيا يكتسب صورة جديدة أخرى لا ترتكز على المأثور وحده ، وإنما تعتمد على نوع من الاستنباط والترجيح على نحو ما نقع عليه عند الإمام الطبري (م عام ٣١٠هـ ـ ٩٢٣م) ، ولعله أول مفسر مزج بين نوعين من التفسير : تفسير بالمأثور ، وتفسير باستعمال الرأي لا يفوقه في هذه المكانة إلا الإمام بقي بن مخلد الأندلسي (م عام ٢٧٦هـ ـ ٨٨٩م) كما ذهب إلى ذلك ابن بشكوال (م عام ٥٧٨هـ ـ ١١٨٣م) في « الصلة» ـ حين قال : « فمن مصنفات أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد كتابه في تفسير القرآن فهو الكتاب الذي قطع قطعا لا استثناء فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره» [1] .

وأخذ التفسير صورة أخرى ؛ إذ انتهج المنهج العقلي نتيجة ما ظهر من معارف متعددة في النحو والصرف والبلاغة والخلافات الفقهية والمذهبية والفلسفية ، والتصوفية وغير ذلك مما تمخضت عنه الفعاليات الحضارية ، وراحت التفاسير تبعا لهذه التمخضات الحضارية تتكاثر بتكاثر اهتمامات المفسرين بعلم معين ، وتباين مجالاتهم بين المنقول والمعقول ، وتراوح الرغبة بين هذا وذاك ، أو تراوحها بين إسراف في هذا أو تفريط في ذاك .

وهكذا أصبح كل مفسر تفتقت مواهبه في مجال علمي ما من المجالات العلمية الأخرى حاول في تفسيره أن يبرز للناس ما نبغ فيه وشغفه حبًا ، فالزجاج (عام

(١) الصلة القسم الأول ص ١١٧ .

٣١١هـ ـ ٩٢٣م) في « إعراب القرآن» والواحدي (م عام ٤٦٨هـ ـ ١٠٧٦م) في «السيط» ، وأبو حيان (م عام ٧٤٥هـ ـ ١٣٤٤م) في « البحر المحيط » وغيرهم احتفلوا كلهم بمسائل النحو والإعراب ، والفخر الرازي (م عام ٦٠٦هـ ـ ١٢١٠م) في «مفاتيح الغيب» اهتم بعلوم الكون والطبيعة والفلسفة وغيرها ، والجصاص (م عام ٣٧٠هـ ـ ٩٨٠م) اعتنى في كتابه «أحكام القرآن» بما تضمنه كتاب الله من موضوعات الأحكام ، والقرطبي (م عام ٦٧١هـ ـ ١٢٧٣م) في «الجامع لأحكام القرآن » عني بالفقه وفروعه ، وابن العربي الحاتمي (م عام ٦٣٨هـ ـ ١٢٤٠م) في « نصوص الحكم » جعل شغله الشاغل التأويل على خلاف الظاهر لإخضاع النص للتفسير الإشاري الذي أفضى به إلى الكفر .

لهذا يمكن حصر جميع أنواع التفسير ، وأشكال مناهجها من خلال الحديث السالف في خمسة اتجاهات :

١ـ التفسير بالمأثور .

٢ـ التفسير بالرأي .

٣ـ التفسير الموضوعي .

٤ـ التفسير الإشاري .

٥ـ التفسير العلمي .

ولولا خوف الإطالة لوقفنا شارحين كل اتجاه على حدة بإسهاب ، ولكن يكفي الإشارة ، ففي ذلك غنية؛ لأن الغاية هي التمهيد للدراسة لا التأريخ للتفسير .

العالم الإسلامي في دوامة الركود :

وقدر الله للعالم الإسلامي أن يفقد ريادته التي أناطها به لتهاونه في القيام بها على الوجه المطلوب ، فعاش في القرون الأخيرة في مناخ خانق من الجمود الفكري ،

والانحطاط الثقافي ، نتيجة التقهقر الحضاري الذي مني به كرد فعل لتقاعسه في حمل رسالة السماء ، الأمر الذي شجع الاستعمار على الائتمار به والتسلط على مقدراته لإبعاده عن حقائق دينه ، ونفث سمومه الصليبية ، وصار المسلم في هذه الأجواء المريضة لا يعرف عن حقيقة عقيدته وشريعته إلا نتفًا من جوانبها . لا تتعدى الشعائر التعبدية ، وحتى التعبدية هذه شابتها بدع ضالة ، وعادات مضللة كان ممن ساهم في ترويجها طوائف الصوفية .

وتحت وطأة هذه الظروف الصعبة العصيبة أمسى المجتمع المسلم غير قادر على اللحاق بركب الحياة المتطور ، فالشلل أقعده عن كل حركة ، وجعله يغفل عن كل مقومات العزة ، ويتقاعس عن الانفتاح على آفاق المعارف ، واعتقد تحت نير هذا الانغلاق وتطويق الجهل له أن العلم وخاصة ما يتعلق منه بالحضارة في مفهومها العام يتنافى ودينه ، ولن يفيده ، وإنما يفيد غيره من المجتمعات الأخرى الكافرة وهكذا .

في غمار هذه الظلمة من الجهل نشأ ما يسمى بالتواكل ، فتواكل ناس على الله تعالى دون الأخذ بالأسباب ، وزينت لهم هذه الفكرة التهاون في العمل ، فقل الإنشاء ، وندر التعمير ، وتجمدت الطاقة العقلية ، على حين أن مبدأ السببية على أسسها أبدع الله تعالى الكون ، فكان ذلك الترابط بين الأسباب والمسببات في نسق تام تهيمن عليه المشيئة الربانية ؛ لذلك كان الأخذ بالأسباب من ضروريات هذا الدين قال تعالى : ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥] ، ويقول مبينا حقيقة التوكل : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩] .

ويقول رسول الله ﷺ ضاربا مثلا للتوكل الحق ـ لا التواكل : «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا**» (١) .

(١) رواه الترمذي وغيره بسند صحيح .

وجر هذا الواقع القاتم إلى الدعوة لسد باب الاجتهاد ، وهذا بديهي ، فالعقل تحجر والاجتهاد زناد الفكر أو ليس هو كما في التعريف الأصولي : « بذل المجتهد وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة» [١] .

ولا ريب عندي أنه تحريك للطاقات العقلية ، وتفجير للقدرات الفكرية ، وإغناء للملكات الفطرية ، ولكن أنى لهذه الطاقات والقدرات والملكات أن تنطلق على هواها ورضاها عاملة جادة وكل ما حولها جدب ومتاهة يسد طريق الإبداع ويعتم آفاق الإنشاء ، مما دعا أيضا إلى الجمود على المذهب حتى ولو كان هناك دليل من الحديث الصحيح يناقض حكما من أحكامه ، الأمر الذي أدى إلى التباغض بين الناس نتيجة التعصب للمذهب ، فامتنع الحنفي من الصلاة خلف الشافعي ، ورفضت الحنفية الزواج من الحنبلي ، وهكذا ارتكب باسم المذاهب الجرائم التي يندى منه جبين الإسلام .

وأسهمت في تعتيم هذه الأجواء إسهاما ملحوظا انتشار البدع في أفراحنا وأحزاننا ، وفي الشعائر التعبدية مما لا يمكن أن يحصى كثرة ، وتتحمل الطرقية والزوايا جل أوزار هذه البدع الضالة . ذلك أنها اضطلعت باختراع بدع شتى تشكل أجواء لها خاصة تتقرب بها إلى الله ـ كما تزعم ـ وهي لا أصل لها من كتاب وسنة ، بل منها ما أصبح خطرا على خصائص الربوبية والألوهية ، فظهر من يرقص ، ويصدر عواء أقرب إلى الإلحاد منه إلى الإيمان ، وظهر من يدعي أنه يطير في الهواء ويسافر على فرس لحج بيت الله الحرام في دقائق معدودة مما لم يظفر به حتى الأنبياء ـ وهم صفوة البشر ـ والتابعون لهم بإحسان من سادة المؤمنين ، وتبعت ذلك ظاهرة الإشراك بالله كالتمسح بالأضرحة والاستشفاء بها وتقبيلها ؛ وإيقاد السرج عليها ، والعناية بزخرفتها مما مهد لخصوم الإسلام طريق الطعن فيه .

---

(١) انظر : الغزالي «محمد» المستصفى ج٢ ، ص ٣٥٠ .

وبات المجتمع الإسلامي يعاني انسلاخًا عن قيمه ومثله ، خاصة حين هيمنت على همة العلماء موجة الوهن واليأس حتى أن منهم من انزلق في تيار هذا الانحراف ، وراح يؤمن بالأساطير الشعبية ، فكان أسوة سيئة في مجتمعه؛ إذ تحمل وزره ووزر غيره[(١)] .

ساعة اليقظة :

وكان من سنن الله تعالى ألَّا يبقى الليل جاثما على آفاق العالم الإسلامي المترقب بين الفينة والأخرى في شوق غامر للمنقذ ، بعد أن ضاق ذرعا بهذا التخلف الذي سد عليه منافذ الضوء وكاد يخنقه ، ويكتم أنفاسه ، غير أن بقية الشعلة الإيمانية التي تنطوي عليها الجوانح ، والتي ما أن تحركها مناسبة حتى تتقد فتتقد معها اليقظة ، وينتفض الوعي يتلمس لنفسه الانطلاق ، وذلك سر هذا الدين الذي قد يبدو للعيان في بعض الفترات أنه قد انحسر ، وبين عشية وضحاها تتوهج أنواره تغمر من جديد الربوع والأنجاد والبلدان ، وإن وجد من يقود ركبه تصدر القافلة يصنع الأمجاد ويغير المفاهيم السقيمة ، ويحرر الإنسان من عبودية الإنسان ، وقد شهد التاريخ لذلك وسيشهد بذلك ، بحول الله ، عما قريب فالبشرى قد بدأت تتوشح الآفاق ، إذ قامت الحركات الإسلامية في كل أرض تدعو إلى هذا الدين وتحكيمه منهجا في الحياة ، وتبع ذلك وعي إسلامي مبارك يبشر بما سيحمله القرن الخامس عشر الهجري من خير عميم للإسلام .

أقول : كان من سنن الله تعالى ألَّا يبقى الليل جاثما ، فأشرقت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب «م عام ١٢٠٦هـ ـ ١٧٩٢م» في نجد تدعو إلى نبذ الخرافات

---

(١) لا تزال الأساطير مهيمنة على عقلية بعض الطبقات الشعبية في المجتمع الإسلامي ، وهذا يبدو بوضوح في التوسل بالأولياء ، والاستشفاء بهم ، وزيارتهم زيارة غير شرعية ، وإقامة المواسم لهم ، كما نلحظ ذلك في المغرب وغير المغرب من بلدان المسلمين .

والشعوذات ، والعودة إلى الإسلام في منابعه الأصلية ، وغمرت هذه الدعوة الجزيرة العربية ، وانتقلت آثارها إلى كافة العالم الإسلامي .

وأطل القرن الرابع عشر الهجري ، وإذا بحضارة الغرب تغزو بلدان المسلمين حين أخذت أوروبا تستولي على جل بلدان الوطن الإسلامي ، وتم استيلاء الإنجليز على الهند وبالتحديد عام ١٢٧٤هـ موافق ١٨٥٧م ، كما تم استيلاء الفرنسيين على الجزائر سنة ١٢٧٤هـ موافق ١٨٥٧م ، وكانت هولندا قد احتلت من قبل جزر الهند الشرقية «أندونسيا» وذلك في بداية القرن السابع عشر الميلادي ، فأيقظتها . أما مصر فقد رجت ربوعها مدافع نابليون وذلك في حملته عليها عام ١٢١٣هـ موافق ١٧٩٨م ، هذه الرجة قد أيقظتها من سباتها العميق ، ففتحت عينيها على حياة جديدة لم تكن تعرفها من قبل؛ إذ كانت حملة نابليون هذه إنذارًا أنذرها مما هي فيه تخلف وانحطاط فهبت تستفيد من الإنجازات الحضارية الغربية وتهيئ نفسها للأمر العظيم .

وفي خضم هذه التفاعلات السياسية والتحولات التاريخية للأمة الإسلامية ظهرت في الساحة اتجاهات : اتجاه ممالئ للاستعمار يمثله أحمد خان « م عام ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٨م » الذي حرف ـ بما ادعى من إصلاح ديني ـ مفاهيم الإسلام لأجل توهين همم المسلمين ـ كما سيأتي قريبا ـ مما كان له أكبر الأثر في تثبيت الوجود القادياني الكافر في الهند .

واتجاه مناوئ للاستعمار يتزعمه السيد جمال الدين الأفغاني « م عام ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٨م » الذي جاب بلاد الهند والحجاز وإيران والعراق وإستانبول ، وجاب بلدان أوروبا ، وقد استفاد من رحلاته هذه ووقف على مكايد العدو .

وما أن استقر بمصر وقضى بها سنوات حتى استطاع بنبوغه أن يوقظ الهمم ، ويستحث الذمم ، ويدعو إلى اليقظة ، فأزاح الغشاوة عن العيون وبث تعاليمه في

كثير من التلاميذ ولم تقتصر حلقات دروسه على الطلبة فقط؛ بل تعدتها إلى العلماء والموظفين .

وأسهمت إقامة جمال الدين في مصر في تقدم الكتابة والخطابة ونهضة العلوم ، وليس من ريب في أن هذه البيئة التي أوت هذا العالم كانت بيئة ذات استعداد تام لتقبل البذرة ؛ لأن مصر مقر الأزهر والمعاهد العلمية الأخرى ، ولولا هذا الاستعداد لأخفقت دعوته كما أخفقت في الآستانة . لذا وجد الأفغاني في مصر التربة الخصبة مما لم يجده في أي بلد آخر . ومصر في الحق ، دائما سباقة إلى المكرمات ما أن تهب فيها حركة إصلاحية حتى يتبادر إلى رعايتها وإحاطتها المخلصون بكل ما تستحقه من تقدير وتبجيل .

وكان الشيخ محمد عبده «م عام ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م» أبرز وجه تخرج في مدرسته؛ إذ تأثر به وترسم خطاه ، وصرف همته إلى الإصلاح الديني والاجتماعي والدعوة إلى نبذ الخرافات ومحاربة البدع والحض على نشر التراث ، وساهم هو بدوره في إحيائه ، إذ أخرج «منهج البلاغة» وشرح كتاب « البصائر النصيرية» في علم المنطق ، وقام بإجراء تعليقات على «أسرار البلاغة » للجرجاني «م عام ٤٧١هـ ـ ١٠٧٨م» . وقد ساعده في كثير من نشاطاته العلمية والإصلاحية تلميذه الشيخ رشيد رضا «م عام ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م» الذي خصص مجلته «المنار» لما كان يدعو إليه أستاذه من أفكار ، ونشر بها دروسه في التفسير .

وعرفت مصر نهضة علمية كما عرفت أفذاذا من رجال العلم والدعوة فيما بعد ، كالإمام الشهيد حسن البنا « استشهد عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م» ورائد الفكر الإسلامي الحديث سيد قطب { . وعرفت كذلك رجالا آخرين مثلوا الفكر المستورد الهدام منه وغير الهدام ، وراحوا ينادون بالانسلاخ عن القيم في حماسة كأحمد لطفي السيد « م عام ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م » وطه حسين « م عام ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م» .

ألوان من التفسير :

ونلحظ منذ انبثاق حركة النهضة الفكرية في الشرق أن ألوانا من التفسير قد أخذت تظهر على مسرح الوجود يمكن استقطابها فيما يلي :

١ ـ التفسير البياني .

٢ ـ التفسير العلمي .

٣ ـ التفسير المذهبي .

٤ ـ التفسير الإلحادي .

١ ـ ازدهر اللون الأول من التفسير على يد الشيخ محمد عبده ، فقد كان يلقي دروسه في التفسير في جامع الأزهر ، «ابتدأها في غرة ١٣١٧هـ وانتهى عند تفسير قوله تعالى من سورة النساء الآية ١٢٦ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ ، وذلك في منتهى المحرم ١٣٢٣هـ .

ويتميز منهج الشيخ محمد عبده في التفسير بما تتميز به دعوته الإصلاحية؛ ذلك أنه سار في التفسير على نهج يرتكز على أن كتاب الله تعالى كتاب دين يتضمن هداية البشر في دنياهم ، ويتضمن سعادتهم في آخرتهم ، وينعى على من يسرف في حشو التفسير بالمباحث النحوية ، ويدعو فقط إلى الأخذ بما هو ضروري في الناحية البلاغية والنحوية في تفسير القرآن ، مما يخدم البيان القرآني حتى لا تضيع حكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه المطلوب الذي يجلب الخير للناس ، ويسلك بهم السبيل القويم .

ويربط الشيخ محمد عبده في تفسيره بين الإسلام في مضامينه المضيئة حول علوم الاجتماع والطبيعة والعجائب الكونية أو خارقة من الخوارق ، وبين الإنجازات الحضارية ، ويحاول أن يوفق بين الآيات الكونية والنظريات العلمية ، مما دفع

البعض إلى أن يعد هذا توسعًا في التأويل ، وهو ما لا يقبله النص القرآني ، ذلك التوسع الذي أملاه على الشيخ الانبهار بحضارة الغرب المادية ، من هؤلاء المعارضين في هذا الاتجاه ـ وهو الرأي الصواب ـ سيد قطب ~ ؛ لأن سيدا يدعو إلى التحوط من إقحام كتاب الله في النظريات العلمية بالصورة التي قد تعرضه للنقد كما تتعرض له المباحث العلمية .

ونظرا لما للشيخ محمد عبده من تقديس خاص للعقل ، ومن انبهار بحضارة الغرب فإنه كان له موقف مشهور في التفسير من بعض الحقائق كحقيقة الملائكة وإبليس ، ومن حادثة سحر النبي ﷺ ومن بعض الأحاديث الصحيحة .

مهما يكن من أمر فقد كان تفسير الشيخ محمد عبده مصباحا على الطريق أضاء ما حوله برغم ما فيه من مآخذ خطيرة .

مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير :

عرفنا سالفا منهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم بإيجاز ، ذلك المنهج الذي كون مدرسة متميزة في التفسير نستقطب مميزاتها فيما يلي :

أ ـ اعتبار القرآن الكريم عاما شاملا لا يقتصر في مضامينه على عصره ، بل يشمل كل عصر وكل مكان إلى يوم القيامة .

ب ـ اعتبار السورة وحدة موضوعية لفهم ما تحتويه من مضامين .

ح ـ الاقتصار على الضروري من علوم اللغة والبلاغة في تفسير القرآن الكريم إبعادا لكلام الله عن مجال تدريب المواهب اللغوية والبلاغية .

هـ ـ تفسير الظواهر الكونية بما أثبته العلم من منجزات علمية .

و ـ رفض الرواية الإسرائيلية والتحري في سوق الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

ومما ينعى على هذه المدرسة أنها حاولت أن تتوسع في إطلاق حرية العقل لدرجة

كبيرة حتى أنها أولت بعض المسلمات الإسلامية ، ووجهتها وجهة لا يحتملها النص «لأجل تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية» كما يقول سيد قطب ~ تعالى [١] .

وقد علل الشهيد سيد قطب ذلك بقوله ، وهو يتحدث عن المدرسة العقلية التي كان يترأسها الشيخ محمد عبده في التفسير في تلك الفترة ، « فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة ، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها ، وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها ، فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل » [٢] .

وإن من أبرز من حمل لواء هذه المدرسة الشيخ رشيد رضا ، والشيخ عبد القادر المغربي (م عام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م) ، والشيخ محمد مصطفى المراغي (م عام ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م) .

٢ ـ ولقي اللون الثاني من التفسير ـ يعني التفسير العلمي ـ رواجا لما حفل به العصر من نظريات علمية في شتى الميادين ـ علما بأن من المفسرين القدامى من تعاطى هذا اللون كالفخر الرازي ـ إذ ولع الناس بالعلوم ولعا خاصا ، فانعكس ذلك على ما ظهر من تفسير للقرآن الكريم في ضوء ما توصل إليه العلم الحديث من مباحث متعددة في كثير من المجالات العلمية اقتناعا منهم بأن هذا يخدم القرآن ، ويسهم في إبراز إعجازه حتى لو كان ذلك يرهق النص القرآني ، ويحمله ما لا يستطيعه من تأويل .

---

(١) في ظلال القرآن ، ج ٨ ، ص ٦٧٠ .

(٢) نفسه .

ومن الكتب المشهورة التي عرفت في هذا العصر بهذا اللون من التفسير كتاب : « الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنبات والجواهر المعدنية» ، للطبيب محمد أحمد الاسكندراني (م عام ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٩م) .

ومن ذلك ما أشار إليه الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي (م عام ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م) في كتابه : « إعجاز القرآن» ، وما تحدث عنه الدكتور الطبيب عبد العزيز إسماعيل (م عام ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م) في كتابه : « الإسلام والطب » .

بيد أن هناك تفسيرا توسع في نهج هذا الطريق هو تفسير الشيخ طنطاوي جوهري (م عام ١٣٥٨هـ ـ ١٩٤٠م) المسمى : « الجواهر في تفسير القرآن الكريم» .

وينهج طنطاوي طريقة المفسرين العادية في تفسير الآيات من حيث اللفظ على سبيل الاختصار ، وبعدها يشرح في عرض البحوث العلمية التي يطلق عليها «لطائف» أو «جواهر» ، هذه البحوث لا تخرج عن كونها مقولات علمية حديثة لعلماء من الشرق والغرب يثبت بها أن القرآن الكريم كان أسبق إلى إقرارها منذ أربعة عشر قرنا .

وتوالت فيما بعد التفسيرات العلمية للقرآن الكريم ، وأخذت الأسواق الفكرية تستقبل بين الحين والآخر كتبا في هذا الموضوع تعرض بحماسة الآيات القرآنية في ضوء ما توصل إليه العلم الحديث ، واشتهر من العاملين في هذا المضمار الأستاذ عبد الرزاق نوفل .

ورغم النيات الصادقة التي يحملها أصحاب هذا الاتجاه في التفسير ، والعزائم الصالحة التي تنطوي عليها جوانحهم ، فإن من العلماء من لم يتلق ذلك بالرضى والقبول مثل الشيخ مصطفى المراغي والشيخ محمود شلتوت (م عام ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م) والإمام الشهيد سيد قطب كما سلف ، إذ إقحام القرآن الكريم في ذلك ،

بدون تحفظ ، قد يسلبه أهم خصائصه ، ويعرضه للنقد . فالبحث العلمي لا يستقر على حال ، فما هو مسلم اليوم ومتفق عليه قد يرفض غدا حين تظهر معايبه وهكذا .

٣ ـ ولا نعدم في غمار هذه الحركة التفسيرية المعاصرة لونا آخر من التفسير ينحو نحوا مذهبيا؛ إذ نجد النتاج التفسيري تهيمن عليه عقيدة أهل السنة والإمامية والاثنا عشرية والإسماعيلية والزيدية والإباضية والمعتزلة .

أما السنة فتمثلها مدرسة الشيخ محمد عبده ، وأما الإمامية والاثنا عشرية فيمثلها الشيخ سلطان محمد الخرساني (م عام ١٣٢٩هـ ١٩١١م) في تفسيره «بيان السعادة في مقامات العبادة» ، وأما الإباضية فيمثلها الشيخ محمد يوسف أطفيش (م عام ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م) في كتابه «هميان الزاد إلى دار الميعاد» .

غير أن الزيدية ليس لها في مجال التفسير من يعكس آراءها ـ كما يبدو ـ على حين أن المعتزلة يمكن أن تقع على أصوات لهم هنا وهناك عند الإمامية أو الإباضية ، أو في تفاسير مختلفة كما نجد عند الشيخ محمد عبده نفسه في موقفه من السحر حين يذهب إلى ما ذهب إليه المعتزلة من أن لا حقيقة له ، وذلك عند تعرضه لتفسير سورة الفلق ، وسنتعرض لذلك حين نتولى معالجة موضوع حديث الآحاد والاحتجاج به في العقيدة وموقف سيد قطب من ذلك ، ورفضه سحر رسول الله ﷺ حفاظا على العقيدة من أن تمتد إليها الأوهام والشكوك كما قال ~ .

٤ ـ بجانب هذه الألوان الثلاثة ظهر لون رابع من التفسير يحتضن التشكيك ، وينهج منهج الإلحاد ، وهو في الحقيقة ليس وليد هذا العصر؛ وإنما هو معروف منذ عصور بعيدة ، قد تولت كبره البهائية ، ومن لف لفهم من الملحدين ، حاولوا هدم عقيدة التوحيد بكل الوسائل فشككوا في المعجزات والقيم الإسلامية على نحو ما عند أحمد [١] خان عميل الانجليز في تفسيره لقرآن الكريم من كفر بواح قصد منه

(١) انظر : البهي «محمد» الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٤٤ .

تمكين سلطة الإنجليز في أرض المسلمين . مما أدى إلى خلق حركة تدعى القاديانية فيما بعد ، ومن بهتان هذا التفسير أنه جعل النبوة غاية تكتسب عن طريق الرياضة ، وحاول أن يقلص من جدية «الجهاد» في العصر الحديث ، وغير هذا مما يكشف عن خساسة نفس هذا العميل وتعامله مع الكفر .

فتح الشهيد العالم «سيد قطب» عينيه على هذا المناخ ، وتنسم هواءه ، فراح يأخذ من معارف الإسلام ما يأخذ ، ويغترف من ثقافة العصر ما يغترف ، لا يفتر عن الأخذ المستمر ، والإكباب الدؤوب يصقل المدارك ، ويوسع الآفاق ، ثم أخذ يجود بإنتاجه على الناس في سخاء حاتمي ، فجاء تفسيره « في ظلال القرآن » مرآة صقيلة لعلمه الغزير ، واطلاعه الوسيع ، وفكره الإسلامي الأصيل المشع بالعطاء العلمي الثرار ، والصفاء الإيماني الرقراق .

*****